تراثنا العربي المسيحي ترجمة الكتاب المقدس في العصر الجاهلي

للأب الدكتور سمير خليل اليسوعي

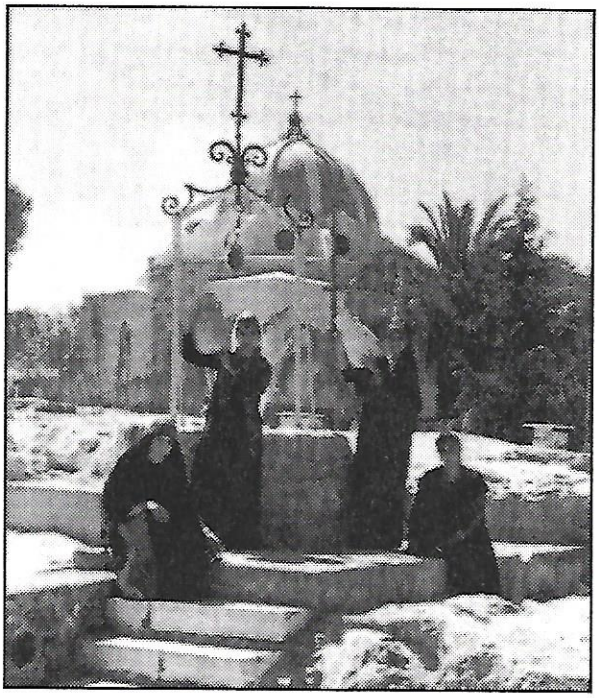

١- السؤال

السؤال المطروح: هل تُرجم الكتاب المقدس الى اللغة العربية في الجاهلية قبل الإسلام؟

هذا الموضوع شائك، وقد تضاربت الآراء فيه. ومعلومٌ أنه لم تصل الينا ترجمة عربية سابقة للإسلام، إلا أن هذا الواقع ليس دليلاً على عدم ترجمة الكتاب في الجاهلية. ذلك لأنه لم يصل الينا أي نص نثري كامل من الجاهلية. قلتُ أن الآراء تضاربت، واليكم عرض سريع لأهم الآراء.

٢- أراء حول وجود ترجمة:

دافع الأب لويس شيخو عن وجود ترجمة في الجاهلية مؤيداً رأيه بأدلة عديدة تاريخية ولغوية وأثرية وشعرية الى آخره، ذلك في مطلع القرن العشرين. وتبعه كثير من المفكرين في الشرق الأوسط لا سيما عبد المسيح المقدسي في مقال قيم ظهر في مجلة المشرق. ثم أخذ المستشرق أنطون باون شترك الألماني ينشر العديد من المقالات إبتداءً من سنة ٢٩ حتى سنة ٣٨، لإثبات الرأي نفسه إنطلاقاً من الترجمات العربية القديمة. أما جورج غراف الألماني، فقد أثبت أن الترجمات العربية التي وصلت الينا، لا ترجع الى أيام الجاهلية، ولكنه في نفس الوقت، يفترض وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس أو لأجزاء منه قبل الإسلام. ثم ذكر الفرد جيوم نصاً من السيرة النبوية لإبن إسحاق سنذكره فيما بعد، يستدل به على وجود ترجمة عربية لإنجيل يوحنا في مطلع القرن السابع الميلادي. وعالج أرثر فيبوس الموضوع بإختصار، فتوصل الى النتيجة ذاتها التي توصل اليها جورج غراف. وكذلك فعل المستشرق اليهودي رابين في مقاله عن اللغة العربية كتبها لدائرة المعارف الإسلامية الجديدة، فأكد أن بعض أجزاء الكتاب المقدس كانت متداولة في الجاهلية وأن واضعيها من النصارى لا من اليهود. وآخر من درس هذا الموضوع بتعمق الأستاذ عرفان شهيد، أستاذ اللغة العربية في جامعة جورج تاون في واشنطن، ويستدل بأدلة تاريخية على وجود ترجمة عربية للإنجيل قبل الإسلام.

٣- أدلة على وجود ترجمة للإنجيل

معلوم أن الديانة المسيحة على إختلاف مذاهبها ونحلها، إبتدأت بين العرب من يوم أن ظهرت، كما يؤخذ في ذلك من شهادة أعمال الرسل ٢:١٠ والرسالة الى أهل غلاطية ١:١٧ ومصادر أخرى معلومة. وقد بدأ إنتشارها بين عرب فلسطين ثم إنتقلت الى سوريا وما بين النهرين وأخيراً الى جزيرة العرب رسخ قدمها، وإتخذت صورة معلومة ومركز ذكرها المؤرخون العرب و غيرهم منذ أواسط القرن الرابع للميلاد. والذي يظهر من أقوال المؤرخين والإصطلاحات الدينية والكنسية التي دخلت لغتنا منذ هذا الوقت، أن المسيحية دخلت الى الجزيرة العربية من طرفين، أي الجنوب على يد الحبش الذين إحتلوها لأول مرة في أواسط القرن الرابع وفي أوائل السادس للمرة الثانية سنة ٥٢٥. ومن الشمال عن طريق سوريا وما بين النهرين على يد الدعاة السوريين. أضف الى ذلك رحلات العرب الى سوريا وفلسطين وما بين النهرين، وإختلاطهم بإخوانهم المنتصرين هناك، وتأثير الأديرة التي كانوا ينزلون عندها، وترددهم على الحوانيت التي كان أكثرها في أيدي النصاري أيضاً، تدرك سرعة إنتشار المسيحية بين العرب، لاسيما بين عرب الشمال والقبائل النازلة فيما بين النهرين. وهذا جوّز لأحد الشيوخ المستشرقين "يوهنس فيل هوزن" أن يقول: "إنه لو لم يظهر الإسلام، لعمت النصرانية بعد قليل من الزمن، شمال الجزيرة كله من البحر الأحمر الي البحر الفارسي". يكفي لترجيح هذا الفكر، أن نُذكر القارىء بأن النصرانية عمت أو كادت أن تعم في ذلك الوقت جميع قبائل قضاعة وأكثر قبائل ربيعة وتميم والطيّ وغيرها من قبائل الشمال وأواسط الجزيرة، ناهيك عن قبائل الجنوب والجنوب الشرقي. وهذا ما حمل رؤساء الدين بين هذه القبائل أن يبنوا لها بيعا وأديرة وصوامع لإقامة الصلاة وسائر شعائر الدين فيها. وإذا إعتبرنا ذلك، وعرفنا أن أهم شعائر الدين في كنائس الشرق وأحبها الى الشعب أن تقرأ كل يوم مساءً وصباحاً قطعٌ من الكتب المقدسة، وأن هذه العادة كانت قديمة عندهم ورثوها كما يظهر عن اليهود كما ورثوا عنهم أموراً أخرى، جاز لنا أن نفترض أن الحاجة الكنسية إضطرت زعماء الدين المسيحي في البلاد العربية الى نقل، ولو هذه القطع فقط، الى لغة الشعب من يوم أن أصبح للعرب بيعٌ يُقيمون فيها صلواتهم وطقوسهم الدينية.

ثم إننا نعلم عن وجود حلقة من الحنفيين في مكة، أشار اليها القرآن مراراً. وقد ذكر صاحب الأغاني عن ورقة بن نوفل أحد الحنفيين، وهو إبن عم خديجة زوج محمد الأولى: "أنه كان إمرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتابة العبرانية، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب". وقال المسعودي صاحب مروج الذهب: "وكان ورقة قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان". ويبدو أن هذه الأقوال تأتي من صحيح البُخاري ومُسلم، فقال البخاري بالحرف الواحد: "وكان ورقة إمرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب

الكتابة العربية ويكتب من الإنجيل بالعربية، ما شاء أن يكتب". فيتضح من ذلك أن كتاب الأغاني حرّف نص الصحيحين، ووضع كلمة عبراني مكان عربي. ويدل ذلك على أن ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب أي الإنجيل العربي وكُتب أخرى، ولا يخفى على أحد دور ورقة بن نوفل على كتابة القرآن وعلى صاحب الرسالة المُحمدية.

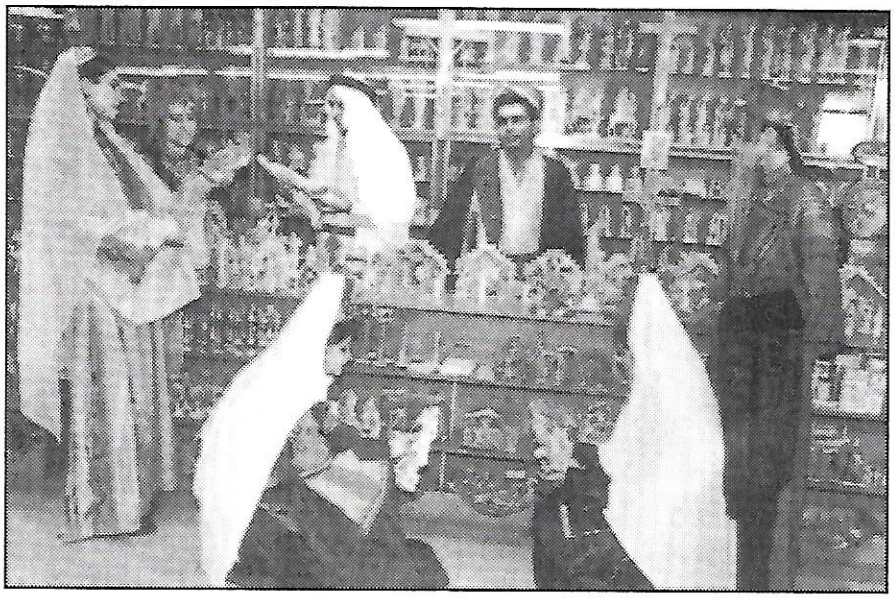

فإذا صح هذا الإفتراض، جاز لنا أن نستنتج منه أن الأناجيل أو قسماً منها نُقلت الى العربية قبل الإسلام، إذ يصعب علينا أن نسلم بأن نصارى الحيرة وسوريا واليمن وشبه جزيرة سيناء وفلسطين، كانوا يقرأون في بيعهم الأناجيل والمزامير وغيرها من كتب العهدين بلغات غير مفهومة أو ظلّوا يقرأونها في هذه اللغات زمناً طويلاً. وبعد أن شاعت بينهم الأحرف العربية الحاضرة التي صاروا يدونون فيها تاريخ بيعهم وأهم حوادثهم المدنية والكنائسية وكتاباتهم على أبواب أديرتهم وضرائحهم وهلم جرّا. زد على ذلك ما ذكره أحد المؤرخين، من أن ملك الحبشة وإسمه "إلا إسبيبا" أرسل سنة ٥٠٢ م الى إمبراطور بزنطيا قسما من إنجيل لنصارى نجران نجى من الحريق. وإن صاحب هذا الخبر لم يذكر لغة الإنجيل هذا على أننا إستناداً الى ما قدمنا من الإعتبارات نرجح أنها كانت العربية.

ثم إننا نجد في القرآن آيات تذكرنا بالكتاب المقدس، بل تكون أحيانا مأخوذة منها بالحرف الواحد. كقوله في (سورة الأنبياء الجملة ١٠٥): "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون". وهي تُقابل عبارة صاحب الزبور (المزمور ١١:٣٧): "اما الودعاء فيرثون الأرض". ومنها ما أخذ معناه فقط كقوله: "فأتاهم الله ثواب الدنيا وحُسن ثواب الآخرة". تُذكرنا برسالة بولس الأولى الى أهل طيموثاوس ٨:٤ "وأما التقوى فتنفع في كل شيء ولها موعد الحياة الحاضرة والمستقبلة". ومن طالع أشعار شعراء الجاهلية مثل إمرء القيس وأمية بن أبي السلط والنابغة الذبياني ولبيد وغيرهم. وطالع القرآن بإمعان وبعض الأناجيل المزورة لا يلبث أن يندهش من كثرة ما يراه هناك من الإصطلاحات الدينية والكنسية والإخلاقية وقدرتها على تأدية أدق المعاني التي لها مساس بهذه المواضيع. وهذا من أقوى الأدلة على أن العرب عالجوا هذه المواضيع منذ أمد بعيد، وأن هذه الإصطلاحات والتعبيرات ليست حديثة العهد ولا هي وضعت أو أخذت في سنة أو بضع سنوات. لكنها دخلت العربية من يوم شاعت النصرانية بين العرب، وإضطر المسيحيون منهم الى إستعمالها في بيعهم وبيوتهم ومجتمعاتهم وكتبهم. ولولا ذلك لما كان لهذه الألفاظ تلك المرونة وتلك السلاسة اللتين لا تكتسبان إلا مع الزمن، وبعد إعمار الفكر طويلاً.

ولقد أشرنا في حديث سابق (نُشر في مجلة البشرى العدد الرابع السنة الأولى) الى الإصطلاحات القرآنية التي أُخذت بلا شك من أصل مسيحي، حسب تعليل علماء القرآن وتدليل المستشرقين. وإذا أمعنا النظر في هذه المصطلاحات القرآنية لوجدنا أن العنصر السرياني الآرامي على إختلاف لهجاته بين فلسطينية وسورية وعراقية هو الغالب عليها. أما الإصطلاحات المسيحية التي دخلت عن طريق الفارسية أو اللاتينية أو اليونانية أو الحبشية فقليلة. وقد ذكرت أمثلة عديدة على هذه الإصطلاحات.

٤- خاتمة

ونرى هنا أن نختم هذه العُجالة، بتقديم رأي الدكتور جواد علي صاحب موسوعة "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" لإحاطته بموضوع الجاهلية. يقول الدكتور جواد علي: "يظهر من بعض روايات الاخباريين، أن بعض أهل الجاهلية، كانوا قد إطلعوا على التوراة والإنجيل، وأنهم وقفوا على ترجمات عربية للكتابين. أو أن هذا الفريق كان قد عرّب بنفسه الكتابين كُلا أو بعضاً، ووقف على ما كان أهل الكتاب من كَتب في الدين. فذكروا مثلاً: " ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العبراني ويكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب" وقالوا: "وكان أمرء تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب الإنجبل بالعربية ما شاء الله أن يكتب". وذكروا مثل ذلك عن أمية بن السلط وقالوا: "إنه قرأ الكتب المقدسة". وقال مثل ذلك عن عدد من الأحناف".

وبعد ذكر هذه الأمثلة أبدى المؤلف رأيه قال: "ولا يُستبعد وجود ترجمات للكتاب المقدس في الحيرة، لما عُرف عنها من تقدم في الثقافة وفي التعليم، ولوجود النصارى المتعلمين فيها بكثرة. وقد وجد المسلمون فيها حينما دخلوها عدداً من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة وتدوين الأناجيل. وقد برز نفرٌ منهم وظهروا في علوم اللاهوت. وتولّوا مناصب عالية في سلك الكهنوت في مواضع أخرى من العراق. فلا غرابة، إذا قام هؤلاء بتفسير الأناجيل وشرحها للناس للوقوف عليها. وقد لا يستبعد تدوينهم لتفاسيرها أو لترجمتها لتكون في متناول الأيدي، ولا سيما بالنسبة الى طلاب العلم المبتدئين. وقد لا يستبعد أيضاً توزيع بعض الترجمات والتفاسير الى مواضع أخرى لفقائتها على الوثنيين وعلى النصارى للتبشير،".

أخيرا، الكتب القانونية التي نرجح أنها نُقلت الى العربية قبل الإسلام إستناداً الى مقارنات ببعض آيات القرآن وأساليب نقلية أخرى فهي الآتية: كتاب التكوين والخروج والأحبار والعدد وتثنية الإشتراع، ثم الزبور، وأخيراً إنجيل متى.